



يَوْمَئِذٍ أَنَا فِي الْإِرْيَافِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

١٨ أكتوبر

كان أول ما فمات عقب رجوعي إلى مكنتي
أن أرسات في طلب الشيخ عصفور ، فحضر أمانى
مطرقاً صامتاً فابتدرته :

— البنت ريم تمجيك ؟

فرفع رأسه ونظر إلى نظرة أحسست أنها
نفذت إلى أعماق نفسى ، ثم عاد فأطرق ولم يجب
فقلت له :

— أنا مستعد أن أطلب المأذون وأعقد

عليك وعليها

فلم يبد حراكاً ، ففضيت أقول :

— لو كانت موجودة هنا كنت حالا

وجمات أستحشيه على الكلام فلم يخرج عن
صمته . وأخيراً رنم بصوت كالهمس لكنه
واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت

والطبع فيك غالب

ودبل السكاب ما ينمعل

ولو علقوا فيه قالب

فأتمالك أن صحت :

— إخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لى أن لا فائدة
ترجى من مثله . ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ؛
فاستدعيته وسألته فى أمر المرأة المخنوقة وكيف
صُرح بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :
— وشرفك ياسيدنا البك ما أعرف إن كانت
مخنوقة أو محروقة . حضرة حكيم الصحة أمر
بالدفن كالمتاد

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نعلم نكشف يا سمادة البك على كل

بنت كان زماننا توفينا من بدرى

— بقى بالاختصار لا حد كشف ولا نظر ..

— الجارى عليه العمل يا سمادة البك أن

حلاقين الصحة فى الجهات تبلغ حضرة الدكتور
المفتش بالتلفون . وحضرته قاعد على مكتبه هنا
ما عليه إلا أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة
وزرد عليه فى التليفون : ماتت يادكتور مودة ربهيا

يقوم بقول : ادفن ، ادفن ، ادفن ...

— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أرفائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدري الناس بحلاقي الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الاذن بالدفن دون أن ينظروا في وجه جثة أو ينتقلوا الى منزل . إن هم إلا سمسرة « دفن » ، وحتى مع فرض وجود التزيه منهم الذي يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف ؟ إنه سيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه في أمرها ؟ إن « نظام » حلاقي الصحة نفسه ، هذا النظام الذي لا تعرفه أية دولة على بسيط الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإني ما زلت أذكر ما قصه عليّ طبيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لي إنه دعي الى حالة ولادة عسرة في إحدى جهات الريف ، فذهب مسرعاً فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدايت منها ذراع الجنين ويجوارها عجوز حراء الشعور والشدقين ، قالت له إنها « الداية » وأخبرته أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها . فسألها لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطري الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين ستر ربنا ، فلنا ربنا ينعمها بالسلامة » . ووضع الطبيب يده في الرحم فاذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مثانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين . وألقي نظرة حوله فاذا كومة من « التبن » القدر عند أقدام المرأة . فالتفت إلى « الداية » الصحية مستفهماً ، فقالت :

أصله ياسيدي الدكتور لما دخلت يدي أسحب الولد لقيتها راحت « مرفلطة » ، قمت قلت : « أحرش كفي بشوية تبين » . ومدت للطبيب يداً ملوثة « بالتبن » قد بدت منها أظافر طويلة سوداء . وقال لي الطبيب : « إن الداية تولد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية « الصحية » التصريح ... ولكنها لم تغير النظام وهي تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة في كل عام نظرت إلى حلاق الصحة ملياً وأدركت أن أرواح الناس في مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا في هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلاً . وطردت هذا الرجل أيضاً ، وقلت في نفسي : إن خير السبل في مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول . وفكرت لحظة ، وخطر لي أن أعرض خطه على القاضي الشرعي وهو يتجرب لي بين موظفي محكمته وبين المحامين الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . وما دمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث في دائرة المحكمة الشرعية . وطالبت في الحال عبيد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي وهو من أصدقاء القاضي الشرعي وكلفته أن يرافقني في الحال ، ولم يمض قليل حتى كننا في بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضي فدلونا على حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندي في أذني أن فضيلته لاشك كان يتوضأ كي يصلي الظهر . وسرد لي في عبارتين مبالغ ورع هذا القاضي وزهده . وضر بنا على الباب ودخلنا ، فرأينا القاضي خالماً جيبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، وبين يديه طبق به بلع من نخلة رأيناها مثمرة في فناء المحكمة . فلما رأنا

المأمور مرة في الميد فوجد حجرة استقباله عبارة عن « دكتين » من الخشب فوق كل منهما فروة خروف قدرة وبينهما حصير قديم . أما المرتب الكبير فهو يكنز برمته إلا جنبهات ثلاثة هي كل نفقات الشهر . وفي آخر العام يشتري بالمال الكنوز عقاراً وطيناً . وهو لا يضع ماله في المصارف خشية أن يعرف مقداره . ولا يدري أحد أين يذفنه طول عامه . وأخبرني المأمور أن القاضي وكأنه لم يمت الليل حضر إليه في الصباح المبكر يجري ويقول في تردد :

— مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير ؟
فأجاب المأمور في ابتسامة خفية :
— طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوي أقابل سمادته ..

فأسرع القاضي في رفق ونلطف ومال على أذن المأمور كأنما يفضي إليه بسر :
— أرجوك بس . مسألة الخمسة جنبهات ..
— مالها ؟ ..
— لا داعي لذكرها ..

هذه الواقعة تمثلت في رأسي فجأة عندما قال لنا القاضي في قاق : « طلب خصوصي ؟ » فقد قرأت ما جال في نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ؛ وأخرجنا في الحال من ماف أوراقتنا الخطاب النفل وعرضناه عليه وحادثناه فيما تريد منه فانشرح صدره وقال :

— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولاً ..
ثم ننظر بعد ذلك في أمر البلاغ ..
وصفق بيديه وصاح :

نهض وحيانا وأجلسنا على الكراسي وطلب لنا « زنجبيل » ، ورأى عبد المقصود افندي أن يوفر على مؤونة بدء الحديث ، فالتفت إلى القاضي الشرعي وقال :

— البك وكيل النيابة ، غرضه بطلب من فضيلتك ...

فأجاب القاضي سريماً في شيء من القلق :
— خير إن شاء الله . طلب خصوصي أو ...
وذكرتني هيأته وفاقه بقصة عنه قصها علي المأمور . قال لي يوماً إن المدير اقترح تحسينا لمظهر المركز وصراغة للصحة العامة إنشاء منتزه في وسط البلد ، وقد تبرع بمض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ، وبلغ القاضي الشرعي ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المنتزه مسجد لعبادة الله ، وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الحديث على كلام القاضي وتحمس لرأيه أعظم التحمس ، وقال له :

— لا بد من عرض اقتراح المسجد على سمادة المدير ، وأنا متأكد أنه موافق مقدماً ، وزيادة في ادخال السرور على قلب سمادته نكتب اسم فضيلتك في رأس قاعة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنبهات . وقد ذكر لي المأمور أنه لم يكذب بلفظ هذا المبلغ حتى اصفر وجهه القاضي ولم يجسد ما يقول ولم يستطع أن يسحب اقتراحه وظهر عليه الضيق والخرج ، وقد كان المأمور يتوقع ذلك على الرغم من علمه بيسر القاضي وبسطة حاله . وهذا اليسر لا يبدو على حياته فهو يقطن في شبه حجرتين ، وبكفيه من الطعام قليل من الجبن مع خلتين وبلحيتين . وقد زاره

الكتاب من شيء» فأسكتني الحاضرون فسكت تأدباً لوجود سماعة المدير ولولا هذا ما سكت ورب الكعبة ، ثم استمر هذا الأفندي في كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال إن عالمه النصراني قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء ! فما تمالك نفسي ونهضت وأنا أنتفض وصحت به : « مهلاً يا حضرة الأفندي مهلاً ، أخبرنا قبل كل شيء ، هل هذا العالم (شنتون) وزن السموات والأرض بالكروسي أو بدون الكروسي ؟ ... » فارتبك المدرس ونظر إلى قائلنا : « كروسي إيه ؟ » فرددت عليه بالآية الشريفة : « وسع كرسيه السموات والأرض ... » أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل والجوهر ، الوزن كان بالكروسي أو بغير الكروسي ؟ ...

فكتمت ضحكي وقلت في هيئة الجد :
— وأخيراً ... ؟

— وأخيراً يا سيدي ... لا شيء ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضع الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ، وغضب مني سماعة المدير واعتبرها إهانة لمجاسه ، وترك الناس المحاضرة وهي المسألة الأصلية والتفتوا إلى اعتدائي على مقام المدير وهي مسألة فرعية ، وتكاثروا عليّ يطالبون إلى الاعتذار ، فاعتذرت ، ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إليّ بعين الرضا ...

وسكت قليلاً ثم قال في لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم . أظن الوزارة الجديدة ستجري حركة تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الإدارة كالمعتاد ؟

فلم أكده أفتح في لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ . أعني أنه يلبس العمامة على جلباب

— يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش ثم صمت قليلاً . وعاد خياناً :
— أهلاً ومهلاً . . . حصل لنا الشرف . . . ورأى عبد القصود أفندي أن يبدى لي صلته بالقاضي ومعرفة له فأشار إليه والتفت إليّ قائلاً :
— فضيلته من كبار العلماء الراسخين في العلم ووجه الكلام للقاضي :
— أنا يا فضيلة القاضي لا أنسى يوم المحاضرة لما رددت على الولد المدرس . . . فقاطعه القاضي مستغفراً مستعيداً :
— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل . والتفت القاضي إليّ وقال :
— تصور يا سيدي البك أن هذا الأفندي مدرس جغرافيا في المدرسة الثانوية ألقى فيها محاضرة علانية عن عالم نصراني اسمه « شنتون » قال إنه قد عرف بالضبط وزن الأرض والسماء . . . استغفر الله العظيم . . . وتأملت قليلاً في الاسم الذي نطقه القاضي . واهتديت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضي « ايتشتين » ، ولذا لي أن أعرف ماجرى ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحولون لي دائماً أن يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضي في شيء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ ؟

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد

— وماذا حصل ؟

— حصل يا سيدي أن هذا المدرس قام وقال في حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر ، فقامت وصحت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد قال الله في كتابه العزيز : ما فرطنا في

نخرجوا جميعاً . وعاد إلى الأمور يتنفس الصعداء .
ويقول في صوت متعب :

— بقي لي يومين بليتين في القرف ده
وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت :
— لكن انت يا حضرة الأمور معروف عنك
انك من حزب الوزارة السابقة
فقال لي على الفور :

— اسكت اعمل معروف . أنا طول عمري مع
الوزارة الجديدة بقلبي ، واللى في القاب في القلب ؛
والأعمال بالنيات
فابتسمت وقالت له :

— نترك السياسة ونسكلم في الشغل
وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود المظلم
اللامى مكسوراً ، وضرورة البحث عن المجرم في
جناية الخنق الجديدة . وطلبت إليه أن يوجه عنايته
لمساعدتنا في الكشف عن الفاعل . فقال في الحال :
— المركز مش فاضى للخنق والحرق
— عجيب . انتم اكم شغل غير المحافظة على
الأمن ؟

— يبنى حضرتك مش فاهم
— لا مش فاهم
— نترك الانتخابات وملتفت للقتل والخنق ؟ ..
— طبعاً

— ما عنديش أوامر بالكلام ده
وتركني وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل
معلقة على حائطه . وغمزني عبدالمقصود أفندى كي أغاني
هذا الموضوع . وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :
— البك الأمور يسمح بطلب دفاتر السجن ...
وشعرت أن كرامة عملي في خطر فصحت قائلاً :

عادي قدر كجلايب الفلاحين ، وهو عادي القدمين .
وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر
مقبضاهما . فشربت في احتراس وأنا أنظر الى داخل
الفتجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار .
وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطاب
القاضي أوراقاً بخط موظفيه ضاهينها بخط البلاغ
فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على من في المحكمة
لعمل أحداً يذكر لنا أنه يعرف صاحب هذا الخط
فلم نظفر بطائل . وخرجنا من المحكمة كما دخلنا .
ومشيناً في طريقنا الى دار النيابة . فقال عبدالمقصود
أفندى :

— نمر بالرة نفتش سجن المركز ونخلص
فلم أبدأ اعتراضاً . وذهبنا الى المركز فوجدنا
الأمور قد جمع بمض الممد في حجرته وجعل يشرح
لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس
الحاسة التي كان يبيدها في مبدئه تولى الوزارة الساقفة .
فما إن رآني وعلم بالعرض من زيارتي حتى خف
لاستقبالي وأجلسني في صدر حجرته . وفض مجلسه
وهو يشيع الممد الى الباب قائلاً :

— فتج عينك يا عمدة أنت وهو . مرشح
الحكومة في الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفقت يدي
وأنتم أحرار . مفهوم ؟ ..
فأجابوا في صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك
وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا
كلهم مسموعة من المائلة الثانية الكبيرة ...
فدفع الأمور في كنفه دفعاً وقال له :
— الشاغبين على أنا ... تفضل

- لابد من أني أفشش بنفسى السجن والمركز كله .
ونهبضت فى قوة وعزيمة أزعجت الأمور .
فتردد ثم قال فى رفق :
— تفضل . السجن تحت أمرك . . . انتظر
سماعتك دقيقة واحدة
وخرج سريماً من الحجرة وهو ينادى :
— يا شاويش عبد النبي . . .
واختفى عن نظارى . ودفعنى دافع الى النظار
من نافذة للحجرة تطل على فناء المركز . فرأيت
المأمور والجاويش يسرعان الى سجن المركز ويقتحانه
ويخرجان منه أشخاصاً تدل هيائهم على أنهم من
أهالى النواحي ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة
النبن والاماف وبغافان عليهم بابها بالفتاح . فقلت
لعبد المقصود أفندى :
— تعال وطل بعينك ده ولا سجن الباسطيل .
- المأمور أحنى بفض الأهالى فى أودة النبن
فقال لى عبد المقصود فى شيء من التوسل :
— يا بك ، الوقت بطل ، والسياسة من حكمة
فى البلد ، ما فيش داعى للتدقيق . . .
— يعنى نترك الناس فى الحبس من غير جرم ؟ . . .
— يا سمادة البك ، رئيس المأمور هو وزير
الداخلية ورئيس الوزراء فى الوقت نفسه ، أما رئيسنا
فهو وزير الحقانية فقط ، وقد سبق أن قضاة
وكلاء نيابة وقفوا للإدارة فى ظروف سياسية
موافق من هذا القبيل قاموا نقلوهم الصعيد !
— يعنى نغضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ . . .
— يا سيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من
مين . . . كان غيرنا أشطر . . .
— طيب ، قم استمعجل لنا الدفاتر والسلام . . .
نوفير الحكيم (يتبع)

بواخر

شركة مصر للملاحة البحرية

لماذا يفضلها الناس ؟

لأنها تفوق غيرها بدقة النظام وجودة الطعام

ولأن جميع أسباب الراحة متوفرة فيها

ولأنها قطعة من مصر

ولأنها بواخر شركة مصرية صميمة